عباس محمود العقاد

الإنسان
في القرآن الكريم

دار الإسلام
القاهرة

إنسان القرآن
وإنسان القرن العشرين

تمهيد

انسان القرآن هو انسان القرن العشرين ، ولعل مكانه فى هـذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجىء الانسان الى البحث عن مكانه فى الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبنـــاء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى اليها ، كما ألجأه الى ذلك كله هذا القرن العشرون ٠

قديما كان الحـــكماء يجعلون شعارهم فى نصيحة الانســـان ٠ « اعرف نفسك ! »

وانها لنصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الانسان اذا أجابه فانما يجيبه باسم « باطنى » يعرفه بملامح وجـدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عنـــد تعريفه بالاسم الذى يختـار اعتسافا من بضعة حروف ٠٠

وهو على أية حال سؤال الى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون فى الحجرة الواحدة ويجيبون عليه عشرين جوابا متفرقات ٠٠

وقديما كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقى ســـؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه ٠ وكان سؤالا عن الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصـباح ، وعلى اثنتين عند الظهيرة ، وعلى ثلاث عند المساء ٠٠ فكان ســـؤالهم لغزا من ألغاز الأقدمين عن الانسان فى أطوار عمره ، بين الطفل الذى يحبو على أربع ، والفتى الذى يعتدل على قدمين ، والشيخ الذى يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الانســـان كله ٠٠ لا تبتعد المسافة بين جهله وعلمـــه ولا بين الهلاك فيه والنجاة ٠٠

الا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سـؤالا عن نسبة من سبب الانسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهـل الجواب ، وقد يكون هلاكا للجسد والروح ..

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟..

ما كانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟..

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هـذا النوع الواحد ، أو هـذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنـوان « الانسان » ..

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول .. تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة .. حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان ..

ان القرن العشرين كان حقيقـا أن يسمى بعصر « الايديولوجيـة » أو عصر الحياة « على مبدأ وعقيـدة » ، لأنه كلما ألقى على الانسان سـؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه الى جزاء أهـون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه .. فان يكن سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المحدق بالأبدان والعقول

وليس أكثر من « المبادىء والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن ، ويسمونها بالمذاهب و « الايديولوجيات »

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى يحل المشكلة الزمنية ولا يتعداها الى مشـكلة الأبد : مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتى الى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التى تؤمن بها الانسانية ، فلا يغنى فيها ايمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصـاراك انك واحد منهـا بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك ان سكتوا عليها .

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغى أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريدها على غير سوائها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتنبذ غـــدا ، ولا توجـد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولمن يطلبون الخير للنـاس دون من يطلبون الخير لأنفسهم ، ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبة ، ولمن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين ، وقد يقعـــدون وهم يجهلون انهم قاعدون ، لا يعلمـون ما الخبر وما المنتظر ؟ ان علموا أنهم منتظرون ! ..

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لهـــا تراثها قبل أن يصير اليهـا ، وسبيلها جميعا أن تتهدى الى قبلة واحـــدة : تنظر اليهـا فتمضى قدما ، أو تفقدها فى الأفق فهى أشلاء ممزقة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق ..

* * *

ان القرن العشرين ، منذ مطلعه ، يعرض العقيـــدة بعد العقيـــدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولا نعلم انه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيـــدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنهـا غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها فى كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس

* * *

ونحن ندعى فى هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الانسان والانسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من كتابهم ، وأن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادىء ومذاهب و « ايديولوجيات » ولا ينتهى ما تعلمـــه أهـل القرآن من القرآن ..

وان أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه اذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هـــذه العقائد التى يروجها دعاتها باسم المـــادية ، أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بهـــا أن تكون على الزمن بديلا من العقـائد الالهية ، ومن عقائد الغيب الذى يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم

وقد استمع الناس الى المادية التاريخية ، فقالت لهم ان الانسان عملة « اقتصادية » في سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الانسانية فقـد أنصتت الى المادية التاريخية ، فقالت لها انها شىء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقهـــا الاسعار والأجور ..

واستمع الناس الى الفاشية فقـالت لهم ان الانسان واحـــد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وان أبناء الانسانية جميعـــا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار .

واستمع الناس الى « العقلية » فقـال لهم قائل منها ان « انسانيتهم » كذلك شىء لا وجود له ووهم من أوهام الاذهان ، وان الشىء الموجود حقا هو الفرد الواحد ! .. وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .. !

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الالهية عن مكان هذا الانســان من الأرض والسماء ، ومكانه من اخوته فى آدم وحواء

سمعوا انه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء ..

وسمعوا انه انسانان .. انســان صحيح مقبول ، وانســان زائف مدخول .. صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه ونفاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه اليه من دعاه

وسمعوا أن الانسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقـدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ، ومن اباء أو اختيار

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون الى العقل كما يستمعون الى الايمان اذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم اليه ..

الانسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار والأسماع

و « الانسانية » من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه ..

* * *

وفى الصفحات التالية كتابان فى كتاب وجيز .. نبدأهما بعقيدة القرآن فنعيد هذه الكلمات القلائل فى صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الانسان فى مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الحدس والخيال ، ولا نزيد فى سردها على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالايمان عن حقيقة الانسان ..

الكتاب الأول

الإنسان في القرآن

المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب الى عقائد الرشد والهداية .. لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التى ذكرها القرآن عن الانسان ، اما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله ..

ولقد ذكر الانسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة وفى الآية الواحدة . فلا يعنى ذلك انه يحمد ويذم فى آن واحد ، وانما معناه انه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف

والانسان مسئول عن عمله ـ فردا وجماعة ـ لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة :

* * *

« كل امرىء بما كسب رهين »

« سورة الطور »

* * *

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون »

« سورة البقرة »

* * *

أما مناط المسئولية فى القرآن ، فهو جامع لكل وكن من أركانها يتغلغل اليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع ..

فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ ، وعلم ، وعمل ..

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة فى مسائل الغيب ومسائل الايمان :

« ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »

« سورة يونس »

* * *

« وان من امة الا خلا فيها نذير »

« سورة فاطر »

* * *

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

« سورة الاسراء »

* * *

أما العلم فان أول آية فى الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الاسلامية ، كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الانسان :

* * *

« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »

« سورة العلق »

* * *

وأول فاتحة فى خلق الانسان ، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات :

* * *

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ٠ قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم »

« سورة البقرة -

* * *

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف ، وبالسعى الذى يسعاه لربه ولنفسه :

* * *

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

« سورة البقرة ٠

« وأن ليس للانسان الا ما سعى »

« سورة النجم »

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

سورة الزلزلة »

* * *

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أممهم جميعا أمة واحدة هى « الأمة الانسانية » والههم جميعا اله واحد هو رب العالمين :

* * *

« يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم ٠ وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »

« سورة المؤمنون ٠

* * *

وفيما ذكر فيه الانسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ، ووصف له وهو فى الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر اليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهى ، والعظة والتذكير ، والثواب والعقاب ..

فالانسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ، من ذى حياة أو غير ذى حياة :

* * *

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

« سورة الاسراء »

* * *

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

« سورة التين »

« سخر لكم ما فى السموات »

« سورة لقمان »

« سخر لكم ما فى الأرض »

« سورة الحج »

* * *

ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة ـ على السواء ـ لا يوصف بها مخلوق غير مسئول ..

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود ، لأنه دون غيره أهل للايمان والعدل والرجحان والعفاف

« ان الانسان لظلوم كفار »

« سورة ابراهيم »

* * *

« ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى »

« سورة العلق »

* * *

« ان الانسان لفى خسر »

« سورة العصر »

* * *

« بل يريد الانسان ليفجر أمامه »

« سورة القيامة »

* * *

« ان الانسان لربه لكنود »

« سورة العاديات »

* * *

وقد يذكر بالضدين فى الآية الواحدة كما جاء فى قوله تعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم • ثم رددناه أسفل سافلين »

* * *

ونقرأ فى بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أرذل العمر ، وهو يقتضى أن يكون « أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد

ونقرأ فى غيرها أن أسفل سافلين هى الجحيم ، فيكون لزاما أن الجنة هى المقصودة بأحسن تقويم

وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتـــدال قوام الانسان ، وليس جمال الخلق وحده مرتبطا باعتدال القـــوام ، بل ترتبط به القدرة على العمل والارادة ، وهى قدرة لم تخف علاقتهـــا بصورته الظاهرة قبل عصر التشريح والعلم بوظائف الاعضاء الذى أثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال انتصاب وجهاز النطق فى الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم زاد الناس علما بما يعنيه التقويم الحسن من فضائل العقـــل والجسد ومن مزايا الفطنة والجمال

وانما المعنى الموافق لسائر معانى الآيات ، ان الجمـــع بين النقيضين فى الانسان ينصرف الى وصف واحد ، وهو وصف الاستعداد الذى يجعله أهـــلا للترقى الى أحسن تقويم وأهلا للتدهور الى أسفل سافلين

على ان الآيات التى قصر فيها القول على خلق جسد الانسان ، لم تخل مما يوحى الى المخلوق المسئول ان أطوار خلقه السوى اعداد لما هو أشرف من حيانه الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب ، عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع :

* * *

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلنـــاه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »

« سورة المؤمنون »

* * *

« ذلك عالم الغيب والشـــهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه »

« سورة السجدة »

* * *

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون »

« سورة الروم »

* * *

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »

« سورة يس »

* * *

ولا يسأل الانسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم ، وما من شيء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الانسان ، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه

الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ واقناع وتبيين ، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق فى تفصيله سائر أركانه التى تتم به أو يتم بها على قدر مبين

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الانسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل فى هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه فى الحياة الانسانية

وخليق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه الى هذه الفضيلة التى تحسب لأول وهلة كأنها شىء من الواقع البديهى لا يحتاج الى التنبيه ، ولكن حاجته الى التنبيه انما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، فى فضيلة التبليغ المقصود ، ونعنى به التبليغ الذى يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان

فى كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها نجاة الانسان من الهلاك أو ضياعه فى هاوية المقت واللعنة ، ثم تبحث عن هذه الأركان فى كتاب الدين فاذا هى معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون الى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادفات القول يتساوى السكوت عنها والنص عليها ..

مثل هذا لا يعرف فى حكم من أحكام الكتاب المبين ولا فى ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقيض ذلك أن تبليغه على قدر فريضته وأن التوافق فيه على أتمه بين الأركان التى تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ ..

مكان الانسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات ..

هو الكائن المكلف ..

هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين « الكائن الناطق » وأشرف فى التقدير ..

هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد ، وأشرف فى التقدير من هذا وذاك

ليس الكائن الناطق بشىء ، ان لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف .

وليس الملك الهابط منزلة تهدى الى طريق الصعود أو طريق الهبوط .. وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار اليه .. ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء

انما الكائن المكلف شىء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح فى الخليقة موضوع فى موضعه المكين بالقياس الى كل ما عداه ..

أى شىء أعجب من هذه الخاصة المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية ..

انها عجيبة لا يدفع عجبها الا أنها تجرى على سنتها من تبليغ الكتاب المبين ..

انها عجيبة لم تأت من مصادفات التضمين والتخمين ، لأن الكتاب الذى ميز الانسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب « العقل » بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون ، قبل أن يصبح العقل « درسا » يتقصاه الدارسون كنها وعملا ، وأثرا فى داخله وفيما خرج عنه ، وفيما يصدر منه وما يئول اليه ..

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف ..

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ..

العقل روية وتدبير ..

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ..

والعقل ذكرى تأخذ من المـــاضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفظ وتعى وتبدىء وتعيد ..

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور ..

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بهـــا التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسـماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

* * *

« ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا »

« سورة آل عمران »

* * *

« أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهمـا الا بالحق وأجل مسمى »

« سورة الروم »

* * *